الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص. ب ٤١٢٣ بيروت ـ تلفون ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle

Beyrouth - LIBAN

B.P. 4123 - Tel. 232832

الادارة : شارع سوريا ـ بناية درويش

صاحبها ومديرها المسؤول

الدكتور سهيل ادريس

Propriétaire - Rédacteur

SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير

عايدة مطرجي ادريس

Secrétaire de rédaction

AIDA M. IDRISS

العدد الخامس

ايار (مايو) ١٩٦٧

السنة الخامسة عشرة

* *

No. 5 . Mai 1967

15 ème année

فصل من مذكرات ...

العذاب والحب !

بقلم الدكتور طه حسين

كانت حياة الفتى في باريس حلوة مرة ويسيرة عسيرة ، لم يعرف فيها سعة ولا دعة ، ولكنه ذاق فيها من نعمة النفس وراحة القلب ورضى الضمير ما لم يعرفه من قبل وما لم ينسه قط . كانت حياته المادية شاقة ، ولكنه احتمل مشقتها في شجاعة ورضى واسماح ، لم يكن مرتبه يتجاوز ثلثمائة من الفرنكات ، كان يدفع ثلثيه في اليوم الاول او الثاني من كل شهر ، ثمنا لمسكنه وطعامه وشرابه ، وكان يدفع نصف الثلث الذي كان يبقى له اجرا لسيدة كانت تصحبه الى السوربون مصبحا وممسيا ليسمع فيها دروس التاريخ على اختلافها ، وتقرأ له بين ذلك ما شاء الله من الكتب حين لا يخلو له ذلك الصوت العذب الذي كان قد رتب له ساعات بعينها في النهار ليقرأ له فيها روائع الادب الفرنسي ، وكان يستبقي فضل مرتبه بعد ذلك لينفق منه على ما يعرض من حاجاته اليومية . فاما امر كسوته فقد تركه الى الله لان مرتبه لم يكن يتسع له.

وانفق السنة الاولى من حياته في باريس لا يخرج من بيته الا الى السوربون ، فكان سجينا او كالسجين لم يذكر قط انه خرج من باريس الى ضاحية من ضواحيها في أيام الراحة التي كان رفاقه ينفقون فيها أيام الاحاد ، ولم يذكر قط انه اختلف الى قهوة من قهوات الحي اللاتيني التي كان رفاقه الجادون يلمون بها بين حين وحين ، وكان اكثر الطلاب المصريين يختلفون اليها أكثر مما كانوا يختلفون الى الجامعة ، وانما كان يلزم بيته في أيام الراحة لا يفارقه وربما خلا الى نفسه اليوم كله في غرفته ، الا ان يلم به ذلك الصوت العذب فيقضي معه ساعة من نهار .

وكان يسمع انباء المسارح ومعاهد الموسيقى واللهو ، وكانت نفسه ربما نازعته الى بعض هذه المسارح ليسمع هذه القصة او تلك ، ولكنه كان يرد نفسه في يسر الى القناعة والرضى . وكيف السبيل الى غير ذلك وهو لا يستطيع ان يذهب وحده الى حيث يريد ولا يستطيع ان يدعو غيره الى مرافقته ، ولا يريد ان يكلف غيره من الناس عناء مرافقته من جهة وتحمل ما تقتضيه هذه المرافقة من النفقات من جهة اخرى ، ولم تكن ذكرى ابي العلاء تفارقه في لحظة من لحظات اليقظة الا ان يشغل عنها بالاستماع الى الدرس او الى القراءة . كان يذكر دائما قول ابي العلاء في اخر كتاب من كتبه انه رجل مستطيع بغيره ، وكان يرى نفسه مستطيعا بغيره دائما ، ويحتمل في سبيل ذلك من غيره هذا الذي يتيح له الاستطاعة ألوانا من المشقة وفنونا من الاذى دون ان ينكر منها شيئا ، فهو مكره على احتمالها اكراها ، وهو مخيَّر بين ان يقبل ما يكره من غيره من الذين كانوا يعينونه على ما يريد او يرفضه فيضطر الى العجز المطلق اضطرارا ، ويضيع حياته في باريس بل حياته كلها في باريس او غير باريس . وكيف السبيل له الى ان يذهب الى السوربون ليسمع الدروس فيها اذا لم تعنه على ذلك هذه السيدة التي لم يكن من معونتها بد ، والتي كانت ترفق به أحيانا وتعنف به أحيانا اخرى ، وربما صحبته من البيت الى الجامعة دون ان تلقي اليه كلمة او يسمع لها صوتا ، وانما كانت تعطيه ذراعها وتمضي معه صامتة كأنما كانت تجر متاعا لا ينطق ولا يفكر ، حتى اذا بلغت قاعة الدرس اجلسته الى مائدة من موائدها ، وانصرفت عنه الى خارج القاعة فانتظرت حتى اذا فرغ الاستاذ من درسه أقبلت عليه فاقامته من مجلسه ، ومضت به الى بيته ، حتى اذا انتهت به الى غرفته أدخلته فيها وأغلقت من دونه الباب ، وهي تقول له في صوت خاطف : « الى اللقاء في ساعة كذا من النهار » .

وربما اعتذرت هذه السيدة من مهمتها بعد ان تجد له سيدة اخرى تقوم مقامها ، فكانت هذه السيدة الثانية ثرثارة تؤذيه بحديثها المتصل اكثر مما كانت تلك تؤذيه بصمتها الملح ..

على ان عجز الفتى لم يكن مقصورا على ذهابه الى الجامعة وعودته منها ، وانما كان عاما شاملا يمس الفتى في اشد الاشياء لزوما له ، فهو كان يستحي من كل شيء ويكره ان يثير الضحك منه او الرثاء له والاشفاق عليه.

صدر هذا الشهر عن دار الاداب « مذكرات طه حسين » التي تنشر لاول مرة في كتاب ، وهي تتناول حياة الاديب العربي الكبير منذ دخوله الازهر حتى عودته من باريس . و « الاداب » تنشر هذا الفصل الرائع من المذكرات :

وكان شرطه حين سكن في البيت الذي اقام فيه ألا يشارك اهله في طعامهم ، وانما يخلو الى طعامه الذي يجب ان يحمل اليه في غرفته حينما يأتي وقته ، فكان الطعام يحمل اليه ويوضع بين يديه ثم يخلى بينه وبينه فيصيب منه ما يستطيع لا ما يريد . يحسن ذلك احيانا ويخطئه احيانا اخرى وربما وضع بين يديه من الوان الطعام ما لا يحسن تناوله فيتركه مؤثرا العافية ، محتملا في سبيلها ما قد يتعرض له احيانا من الم الجوع .

وظل الفتى على هذه الحال شهورا ، ولكن الله رفق به بعد ذلك فاتاح له من كان يهيىء له طعامه ويعلمه كيف يرضي منه حاجته .

واتخذ الفتى زي الاوروبيين ، وما اسرع ما تعلم الدخول فيه والخروج منه ، الا شيئا واحدا لم يحسنه اعواما طوالا ، وهو هذا الرباط السخيف الذي يديره الناس حول اعناقهم ثم يعقدونه بعد ذلك من امام عقدة يتأنقون فيها قليلا او كثيرا !

لم يفتح الله على صاحبنا بتعلم هذا الجزء من زيه ، فكان أخوه يدير له هذا الرباط حول عنقه ما عاشا معا في مونبلييه .

فلما افترقا حار الفتى في أمره ، ولكن صديقه الدرعمي أخرجه من هذه الحيرة ، وأشترى له أربطة مهيأة لا تحتاج الى عناء ، وانما تدار حول العنق في يسر ويجمع بين طرفيها في يسر ايضا ، وقد هيئت عقدتها فليس محتاجا الى أن يتكلف عقدها وتسويتها والتأنق القليل او الكثير فيها ، ولكنه كان مضطرا الى أن لا يفكر مطلقا في الملاءمة بين هذه الاربطة وبين ما كان يتخذ من ثياب . وربما اتخذ منها رباطا واحدا يديره حول عنقه في كل يوم ويمضيء على ذلك الاسابيع المتصلة ، وربما لاحظ هذا الرفيق او ذاك من رفاقه اختلافا بين ثوبه ورباط عنقه ، وربما أعانه صديقه الدرعمي فتقدم أليه في أن يغير هذا الرباط واختار له ما يلائم زيه مما كان عنده من هذا السخف الذي لم يفهم له معنى قط .

وكذلك عاش الفتى عامه الاول او اكثر هذا العام ، مضطربا في هذه الحياة المادية المختلطة المعقدة من جميع نواحيها . وربما كان يجد بعض الالم في ذلك ، ولكنه كان يمر به مرا سريعا لا يقف عنده ولا يفكر فيه الا قليلا . كان يعزيه عن ذلك اقباله على الدرس ، واحساسه الانتفاع به والتقدم فيه وشعوره بأنه قد اخذ يفهم الفرنسية في غير مشقة ولا عسر ، ويقرأ كتاب التاريخ والادب والفلسفة ، فلا يجد في فهمها جهدا ولا عناء ، قد انقطع لذلك انقطاعا تاما فهان عليه منه ما كان صعبا ويسر له منه ما كان عسيرا .

ولم تكن حياته العقلية أقل تعقيدا والتواء من حياته المادية ، فلم يكد يختلف الى دروس التاريخ والادب في السوربون حتى أحس انه لم يكن قد هيىء لها ، وأنه لا يفهمها ولا يسيغها كما كان ينبغي أن تفهم وتساغ ، وان درسه الطويل في الازهر وفي الجامعة لم يهيئه للانتفاع بهذه الدروس .

وكانت آماله عراضا فكان ينبغي أن يتخذ اليها أسبابها ، وأول هذه الاسباب أن يعد نفسه لفهم الدروس التي تلقى في الجامعة ، وسبيل هذا الاعداد أن يقرأ في أقصر وقت ممكن ما كان التلاميذ الفرنسيون ينفقون الاعوام الطوال في درسه بمدارسهم الثانوية . فليس له بد اذن من أن يكون تلميذا ثانويا اذا آوى الى بيته ، وطالبا جامعيا اذا اختلف الى دروس السوربون .

وما أسرع ما نظر في برنامج المدارس الثانوية الفرنسية ، واستخلص منه ما يحتاج اليه ، وأزمع أن يدرس منه التاريخ والجغرافيا والفلسفة ، وهذه الخلاصات الموجزة التي كانت تلقى الى التلاميذ عن الاداب الاجنبية الاوروبية قديمها وحديثها . وقد أقبل على ذلك كله في عزم لا يعرف الضعف ، وتصميم لا يعرف التردد ولا الفتور . واستطاع في وقت قصير ان يحصل من هذا كله ما حصله التلميذ الذي كان تقدم الى الشهادة الثانوية مطمئنا الى ان الممتحنين لن يردوه عن هذه الشهادة خزيان أسفا .

واستقامت له دروسه في السوربون فجعل يفهمها ويسيغها كما كان يفهمها ويسيغها زملاؤه الفرنسيون . واختار لنفسه أستاذا من أساتذة المدارس الثانوية يعلمه اللغة الفرنسية تعليما منظما ، فلم يكن يكفيه ان يفهم اذا سمع ، وأن يفهم الناس عنه اذا تحدث اليهم ، وانما كان يجب عليه أن يحسن العلم بحقائق هذه اللغة ودقائقها وأن يكتبها كتابة لا تنبو عنها عين يقرأها .

وكان يقدر أن الاساتذة في السوربون ، سيكلفونه بعض الواجبات المكتوبة ، كما كانوا يكلفون غيره من الطلاب . فلم يكن له بد اذن من أن يتهيأ لتحرير هذه الواجبات حين تطلب اليه على وجه لا يعرضه للسخرية والازدراء . وما اكثر ما كان الاساتذة يسخرون من طلابهم اذا كتبوا لهم الواجبات فقصروا في بعض نواحيها . وكان الاساتذة يقرأون بعض هذه الواجبات ، يختارون من بينها للقراءة أشدها تعرضا للنقد ، ثم يأخذون في هذا النقد على نحو لاذع ممض يحرضون به الطلاب على أن يحسنوا العناية حين يكتبون . وكانت سخريتهم بالمقصرين تضحك الزملاء ، وتخرجهم أحيانا عن اطوارهم .

فكره الفتى أن يتعرض لبعض هذه السخرية ، ولكنه تعرض ذات يوم لشر منها . كلفه استاذ تاريخ الثورة الفرنسية فيمن كلف من زملائه كتابة موضوع عن الحياة الحزبية في فرنسا بعد سقوط نابليون ، فأقبل على هذا الموضوع فدرسه كما استطاع في الكتب التي نبه اليها الاستاذ ، وفكر فيه كما استطاع أيضا . ثم كتب عنه ما اتيح له ان يكتب وقدمه الى الاستاذ في اليوم الموعود . وجاء يوم النقد فاستعرض الاستاذ ما قدم اليه من الواجبات ناقدا ساخرا منددا متندرا موبخا بعض الطلاب أحيانا ، حتى اذا ذكر اسم الفتى لم يزد على ان ألقى اليه واجبه معقبا بهذه الجملة المرة التي لم ينسها قط : « سطحي لا يستحق النقد » . وكان لهذه الكلمة وقع لاذع في نفس الفتى أمضه بقية يومه وأقض مضجعه حين أقبل الليل . وأشعره بأنه لم يتهيأ بعد كما ينبغي ليكون طالبا في السوربون ، فألح في درس الفرنسية وكلف نفسه في هذا الدرس من الجهد الثقيل والعناء المتصل ما كاد يصرفه عن غيره من الدروس . وأعرض عن المشاركة في كتابة الواجبات حتى تتم له أداة هذه الكتابة وهي اللغة الفرنسية .

وبينما كان الفتى يمتحن بأثقال هذه الحياة المادية والعقلية العسيرة ، مجاهدا ما أستطاع الجهاد ، مروعا بين حين وحين بهذا اليأس الذي كان يتراءى له من وقت الى وقت فيشقيه ويضنيه ، فتح له باب من ابواب الامل لم يكن يقدر انه سيفتح له في يوم من الايام . الم عنة طارئة بصاحبة ذلك الصوت العذب الذي كان نعيمه الوحيد في حياته الشاقة المظلمة ، فأقبل يعودها وجلس يتحدث اليها ، ثم لم يدر كيف التوى به الحديث ، ولكنه سمع نفسه يلقي اليها في صوت أنكره هو قبل أن تنكره هي : انه يحبها .

ثم سمعها تجيبه بأنها هي لا تحبه .

قال :

ـ وأي بأس بذلك ؟

فلم تجبه ، وغيرت مجرى الحديث ، وانصرف عنها بعد ساعة ، وقد استقر في نفسه ان حياته ستسلك منذ ذلك اليوم طريقا جديدة .

وليس من شك في ان نفسه كانت قد تعلقت بذلك الصوت العذب منذ وقت طويل .. والا فما جزعه حين اضطر الى العودة الى مصر ؟.. وما ابتهاجه بهذه الرسائل التي كانت تصل اليه ؟.. وما شوقه العنيف الى العودة الى فرنسا ليسمع فيها ذلك الصوت ؟.. وما خروجه عن طوره حين وجد الرسالتين اللتين كانتا تنتظرانه في نابولي ؟.. وما الحاحه على صاحبه الدرعمي في أن يقرأ عليه هاتين الرسالتين مرة ومرة حتى أملّه ؟.. ثم ما حرصه على أن يسمع هذا الصوت في باريس ؟.. وما نزوله في بيته ذاك الذي كان يسمع فيه هذا الصوت يتردد في كل ساعة من ساعات النهار ، ويلقى فيه صاحبة الصوت حين يريد لقاءها دون ان يتكلف لذلك جهدا او سعيا او انتظارا .. وما سعادته بأنه كان يقيم في هذا البيت غير بعيد من ذلك الشخص الذي كان يلقي عليه تحية الصباح حين يخرج من غرفته ،

ذاهبا الى السوربون ، ويلقي عليه تحية المساء ، حين يتقدم الليل ويأوي أهل البيت الى مضاجعهم . ويقرأ عليه بين ذلك ما شاء الله من آيات الادب الفرنسي ؟

ولكن حبه كان يستحيي حتى من نفسه فينكرها ، وكان الفتى يخفي شعوره ذاك في أبعد ما يمكن ان يستقر من أعماق ضميره ، ويكره أن يتحدث به الى نفسه ، وقد استيقن انه لم يخلق لمثل هذا الشعور وان مثل هذا الشعور لم يخلق له .. وأين هو من الحب ؟ وأين الحب منه ؟

انما كتب عليه أن يعيش كما عاش مثله الاعلى ، ذلك الذي وقف حياته منذ قرون طوال في دار من دور المعرة على الدرس ممعنا فيه ، غير معني الا به ، محرما على نفسه ما أباح الله للناس من طيبات الحياة ..

كان الفتى يطوي نفسه على شعوره ذاك يائسا منه ومن عواقبه ، راضيا بما يتاح له من سماع ذلك الصوت ومن الحديث الى صاحبته حين يتاح له الحديث اليها ، واثقا بأن هذا هو اقصى ما يمكن ان يساق اليه من النعيم .. غير طامع في اكثر منه .. وكان واجدا على الحياة والظروف لانها تحول بينه وبين اكثر منه .

ولكن العلة الطارئة التي ألمت بصاحبته والصوت العذب الذي أدركه الضعف وشاع فيه الفتور والاشفاق من الالم والجهد ، على ما كان يكره له أن يحس الالم أو يحمل ثقل الجهد ، كل ذلك ملك عليه أمره وملأ عليه قلبه وأنساه تحفظه وتحرجه ، وأجرى على لسانه تلك الكلمة التي أنكرها . وليس غريبا بعد ذلك انه لم يجد حزنا ولا شقاء ولم يحس لوعة ولا ألما حين بلغ مسمعه الرد على كلمته تلك مؤسسا مقنطا . فهو لم يكن ينتظر الا اليأس والقنوط ، قد وطن نفسه عليهما وعزى نفسه عنهما بما كان يمعن فيه من التدرس والتحصيل .

وهو قد انصرف عن صاحبته في ذلك اليوم راضيا عن نفسه ساخطا عليها .

راضيا عنها لانها قالت ما لم يكن بد من ان يقال .

ساخطا عليها لانها عرضته بهذه الكلمة لشر عظيم ، فهي قد عرضته لاشفاق تلك الفتاة عليه ورثائها له وضيقها به . ومن يدري لعلها تريد أن تصرفها عنه صرفا ، وان تلقي بينها وبينه حجابا يقطع تلك الاسباب العذاب التي كانت تتيح لهما اللقاء والاستمتاع العقلي والشعوري بما كانا يقرآن معا من آيات الادب الفرنسي .

ومن يدري لعل هذه الكلمة التي ألقاها في غير تدبر وعن غير ارادة أن ترده الى تلك الظلمة المظلمة التي ظن انه خرج منها . وان تضطره في يوم قريب او بعيد الى ان يترك ذلك البيت ويلتمس له مسكنا اخر لا يسمع فيه ذلك الصوت ولا يلقى فيه ذلك الشخص ولا يجد فيه شعور الرضى والنعيم .. وانما يجد فيه شعورا اخر كله سخط مر وحزن ممض وألم مفسد للحياة .

عاش صاحبنا بين هذا السخط وذلك الرضى اياما لم يكد ينتفع عفيها بقراءة او درس ولم يكد يذوق فيها للحياة طعما .

ولكنه يلقى صاحبته بعد ان انجلت عنها غمرة العلة ، فاذا هي كعهده بها لم تتغير ، لم تزدد اقبالا عليه ، ولم يجد منها اعراضا عنه ولا نفورا منه ، وانما هي تلقاه كما تعودت ان تلقاه رفيقة به عطوفا عليه ، وتقرأ له كما تعودت أن تقرأ له ، وتبين له ما يشكل عليه أثناء القراءة ، كما تعودت أن تفعل من قبل ، فيرده ذلك الى شيء من الامن ، ثم الى شيء من الدعة وراحة البال ، وتنقضي ايام ، واذا ذلك الشعور الخفي العميق الذي ظهر فجأة في ساعة من الساعات ثم استحيا وعاد الى مستقره ذاك من اعماق الضمير ، يظهر مرة اخرى ولكن في تحفظ وتردد وأناة ، لا يتحدث الى الفتاة بشيء ولا يتحدث الى الفتى بشيء حين يلقاها ، وانما يكمن في مستقره من أعماق الضمير .

حتى اذا تقدم الليل وخلا صاحبنا الى نفسه وهم ان يستقبل النوم خرج ذلك الشعور من مكمنه وذاد النوم عن صاحبه وجعل يسامره حتى يوشك الصبح أن يسفر ثم يعود الى مكمنه ذاك ويسلم الفتى الى نوم قصير .

ولم تلبث آثار هذا الارق المتصل ان تظهر وان يلحظها أهل البيت ، وتلحظها معهم ذات الصوت العذب ، وهم يسألونه عن أمره فيلتوي بالجواب وهم يريدون ان يعرضوه على الطبيب فلا يستجيب لما يريدون وانما يزعم لهم أن ليس به بأس .

وما يزال هذا شأنه حتى يظهر عليه بعض الضر . وتسأله الفتاة ذات يوم وقد خلت اليه تقرأ عليه بعض ما كانا يقرآن ، فيريد أن يلتوي بالجواب ، فتلح عليه واذا هو ينبئها مريدا او غير مريد بأمره كله .

فتسمع له ثم تسكت عنه ثم تأخذ في القراءة حتى اذا أتمتها وهمت ان تنصرف قالت له في رفق :

ـ واذن فماذا تريد ؟

قال الفتى :

ـ لا أريد شيئا .

قالت :

ـ فاني قد فكرت فيما أنبأتني به وأطلت فيه التفكير ولم أنته الى شيء ، وقد أوشك الصيف أن يظلنا وسنفترق ، فاصبر حتى اذا كان افتراقنا فسنتصل بيننا الرسائل كما تعودنا ان نفعل . فاذا قرأت في بعض رسائلي انني ادعوك الى أن تنفق معنا بقية الصيف فاعلم اني قد أجبتك الى ما تريد وان لم تقرأ هذه الدعوة حتى ينقضي الصيف فاعلم أنها الصداقة الصادقة بينك وبيني ليس غير .

ولم يسعد الفتى بشيء قط كما سعد بهذا الحديث ، وكانت آية سعادته انه أطرق وتم يقل شيئا .

وأقبل الصيف وكان الافتراق ، ذهبت هي الى قرية في أقصى الجنوب .. وأقام هو في باريس ، واتصلت بينهما الرسائل ، ولكنها قبل ان تفارقه كلفت زميلة لها ان تكون هي الكاتبة القارئة لرسائلهما حتى لا يطلع على هذه الرسائل زميل من زملائه .

واتصل الفراق شهرا ..

طه حسين

صدرت الطبعة الثانية من كتاب :

قصة القرحة

للدكتور منذر الدقاق

عضو المجمع الطبي الاميركي لامراض جهاز الهضم

* اوسع دراسة علمية مبسطة لموضوع القرحة الهضمية
* مزود بالصور والاشكال الملونة
* يهم كل مريض مصاب بالقرحة أو يخاف القرحة

يطلب من دار العلم للملايين . ثمن النسخة ٤ ل.ل